

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الثانية - العدد الثامن - شتاء ١٣٩١ش / كانون الأول ٢٠١٢م

ص ١٣٣ - ١٤٧

شخصية دِعْبِل الخزاعي من خلال التناقضات

يحيى معروف*

الملخص

قلما نجد شاعرا أو كاتباً شيعياً دافع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآل بيته الأبرار إلا ونجد أنواع التهم تخيم عليه. هذا المقال يدرس تناقضات المؤرخين من خلال تعريفهم لدِعْبِل الخزاعي (الشهيد سنة ٢٤٦ق) فيحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: ١. هل يمكننا الاعتماد على أقوال بعض المؤرخين للتعريف بشخصية دِعْبِل الخزاعي رغم تناقضاتهم؟ ٢. هل للتعصب دور في آرائهم وأقوالهم؟ ٣. هل هناك أقوال أخرى وردت في كتبهم تنفي مزاعمهم فيما زعموا؟

يحاول الباحث عرض التُّهْم التي ألصقت بشاعرنا ثم الإجابة عنها مستخدماً نفس الكلمات الواردة في أقوال هؤلاء المؤرخين ويظن القصد من ذلك هو إلقاء المزيد من الضوء على تلك التهم والمقارنة بين أقوالهم ليتبين للقارئ نياتهم حتى يصل إلى الاستنتاج المنطقي.

وللبحث فرضيات نحاول إثباتها وهي: ١. أقوال وآراء هؤلاء المؤرخين للتعريف بشخصية شاعرنا نابع عن حقد دفين. ٢. إنهم اضطروا لخلق التُّهْم لإبعاد الناس عن الشيعة وشعرائهم. ٣. توجيه هذه التهم لم يكن إلا بأمر من سلاطين الجور.

الكلمات الدلالية: دِعْبِل الخزاعي، المؤرخون، الشاعر الملتزم، آل بيت النبي

(صلى الله عليه وآله وسلم).

المقدمة

الذين دافعوا عن آل بيت نبينا المختار (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا أكثر الناس عرضةً لأنواع المخاطر كالقتل والتعذيب وتلطيخ السُّمعة مثلما ورد في أمهات المصادر العربية التي تتهم هؤلاء الشعراء بلؤم الطبع، والبخل، ودناءة النفس رغم ذلك احتفظت نفس المصادر ولو بقدر يسير، من صفاتهم السامية، وهذا القدر على قلته يكفي للتدليل على صحة ما ذهب إليه الباحث.

الدراسات السابقة

هناك كتب ومقالات عدة تلقي الضوء على بعض الزوايا من حياة دعبل الخزاعي ولكن لم نعرث على بحث شامل ينفي مزاعم المؤرخين في التهم الموجهة إلى هذا الشاعر الملتزم الذي قدم النفس والنفيس في الدفاع عن عقيدته السامية.

لاشك أنه قلما نجد شاعرا أو كاتباً شيعياً دافع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآل بيته الأبرار إلا ونجد أنواع التهم تخيم عليه نحو: (كان فاسداً)، (كان فاسقاً)، (كان رافضياً)، (كان كثير التعصب والغلو)، (كان ظالماً)، (كان أحمق)، (كان بخيلاً)، (كان كذوباً) وهكذا دواليك. وبالرجوع إلى تراجم هؤلاء الذين رُموا بالفسق والخيانة والحماقة والخروج عن الدين وغير ذلك، نجد من بين هؤلاء فريقاً كان معروفاً لدى الرواة بالصدق والوفاء والالتزام بالتقوى وجودة الشعر. ويظهر من أخبارهم أن هؤلاء الشعراء لم يستطيعوا أن يتأقلموا مع حياة الظلم والاضطهاد، ومضوا يعيشون الحياة كأحرار غير مبالين بسلوك الطغاة والجبابرة وأوامرهم ونواهيهم.

ومنهجنا في هذا البحث هو الكشف عن حقيقة أحد الشعراء الملتزمين من خلال أقوال المؤرخين في نصوصهم التاريخية. ثم المقارنة بين أقوالهم ليتبين للقارئ المنصف نياتهم حتى يصل إلى الاستنتاج المنطقي والرأى السليم. فالبحت يعرض جانباً من جوانب السلوك الاجتماعي، لدى دعبل بن علي الخزاعي (الشهيد ٢٤٦ق) الذي دافع عن آل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه ونفيسه.

يحاول الباحث عرض التُّهم التي ألصقت به. ويظل القصد من ذلك هو إلقاء المزيد من الضوء على تلك الانتقادات التي تناقلها الرواة في هذا الشأن. فالدراسة هذه

لاتسعى إلى إثبات التهم التي تناقلها الرواة عن دُعبل أو رفعها عنه، بل هي الإمامة إخبارية فُصد من حصرها وإيرادها عرضها وإخضاعها للدراسة من خلال الموازنة بينها وبين ما نسب إليه. وهنا تلقى الضوء على حياة شاعرنا الفذ:

ولد «دُعبل» في الكوفة سنة ١٤٨ق، (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢/٢٧٠؛ الخطيب البغدادي، ١٤١٧ق: ٨/٣٨١) ونشأ فيها. والمعروف أن هذه المدينة كانت تتصف بولاء معظم أبنائها لآل البيت (عليهم السلام). وقد عاصر تسعة من خلفاء العباسيين هم: المنصور [بدأت خلافته سنة ١٣٦ق] والمهدى، والمهادى، والرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل [انقضت خلافته سنة ٢٤٧ق] فهو ينتمي في نسبه إلى قبيلة خزاعة المعروفة بولائها العريق للإسلام ولرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولأهل بيته (عليهم السلام) فعبد الله بن بديل بن ورقاء، الجد الأكبر لدُعبل، كان هو وأخوه عبد الرحمن رسولى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى اليمن. وكانا وشقيقهم عثمان من فرسان جيش الإمام على بن أبى طالب (عليه السلام) في صفين. قال أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني: (١٤٠٧ق: ١٣٢/٢٠) «كان دُعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى على صلوات الله عليه.» فترعرع في أسرة موالية لأهل البيت (عليهم السلام)، وعلى الرغم من كل الصور المشوهة التي نسجها بعض المؤرخين حول شخصيته، لم يستطع أحد أن يطعن في عقيدته أو يتهمه بالانحراف عن ولائه لأهل البيت (عليهم السلام). فشعره يعكس وجهة نظره العقائدية في فهم التشيع. وهنا نكتفى بما قاله ياقوت الحموى في معجم الأدباء: (١٣٥٥ - ١٣٥٧ق: ٤/١٩٦) «قصيدته الثائفة في أهل البيت من أحسن الشعر، وأسنى المدائح قصد بها على بن موسى الرضا عليه السلام بخراسان.» والآن نصل إلى تهم الرواة دُعبل وما قيل عنه في المصادر العربية فلنبدأ بكتاب الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني (٣٦٢-٤٨٤ق): هذا الكتاب من أهم ما وصل إلينا من كتب التراث العربي، واعتمد عليه معظم المؤلفين بعده، فكان أهم مصدر من مصادر تأليفهم في الأدب والنقد والتاريخ والحضارة العربية بكافة جوانبها وعصورها منذ الجاهلية وحتى عصر مؤلفه. عبّر عنه ابن خلدون في مقدمته (١٩٦١م: ١٠٧٠) بقوله: وقد حصلت لهذا الكتاب شهرة واسعة جداً، منذ أن ظهر للناس أواسط القرن الرابع للهجرة ووصلت شهرته إلى الأندلس سريعاً، فبعث الحكم المستنصر إلى مؤلفه ألف دينار

عيناً ذهباً، وخاطبه يلتبس منه نسخة. فبعث إليه منه نسخة حسنة منقحة (ابن الأبار الأندلسي، ١٩٦٣م: ٣٠١/١) كما بعث بنسخة أخرى إلى سيف الدولة الحمداني أمير حلب «فأنفذ إليه ألف دينار». (ابن منظور، ١٩٦٥-١٩٦٦م: ١/١) ورغم هذه الشهرة الواسعة نقده الكثيرون فذكروا مواضع الخلل والاضطراب والتناقض فيه. (انظر: محمد خير شيخ موسى، ١٩٨٩م)

التهمة الأولى

ذكر ابوالفرج الأصفهاني بعد أن نسب إليه أوصافاً ممتازة كـ«شاعر متقدم مطبوع» (١٤٠٧ق: ١٣١/٢٠) ثم تابع القول فقال: «هَجَاءٌ خَبِيثُ اللِّسَانِ!!، لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم.» وقال الخطيب البغدادي: (١٤١٧ق: ٢٤٦/٨) «وكان خبيثَ اللِّسَانِ قبيحَ الهجاء.» وقال ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ ق) في وفيات الأعيان (١٩٦٨م: ٢٢٧/٢): «كان شاعراً مجيداً إلا أنه كان بذى اللسان مولعاً بالهجو والحطِّ من أقدار الناس.» وقال أبو إسحاق القيرواني الحصري (ت ٤١٣ق) في زهر الآداب (لاتا: ٨٦/١): «كان دعبل مباحاً لأهل البيت عليهم السلام كثير التعصب لهم والعلو فيهم.»

وجوابه هو: أن في سيرة دعبل ملامح من العزم والقوة والاستمرار على المبدأ فدعبل يختلف عن شعراء عصره الذين أكثروا شعر المديح في الحكام العباسيين، فهو كان يعبر بصراحة وصدق عما يراه ويشاهده من أحداث عاشها وعانى منها الكثير، وكان يوجّه النقد الصريح للحاكمين دون خوف أو وجل، ممّا لوّن شعره بطابع الهجاء ولهذا أصبح محلاً للتجريح من قبل البعض. لأنه كان شديد الموالاة لآل البيت (عليهم السلام)، متجاهراً في ذلك، متعرضاً بالهجاء لكل من يناوؤهم. وقد تحمّل في سبيل ذلك كثيراً من المتاعب، واضطر إلى عبور الصحارى والفلوات هرباً ممن هجاهم من الخلفاء. قيل له: لماذا تهجو من تخشى سطوته؟ قال: «أنا أحمل خشيتي على كتفي منذ خمسين سنة، فلست أجد أحداً يصليني عليها.» (الأصفهاني، ١٤٠٧ق: ١٣٣/٢٠؛ ابن خلكان،

١٩٦٨م: ٢٢٧/٢)

وأما أسباب هجاءه المقذع للخلفاء الذين عاصروهم يعني هارون الرشيد، محمد الأمين، المأمون، المعتصم، والمتوكل ووزراء هؤلاء الخلفاء، دون أدنى شك هذا دليل جرأته وإقدامه على هجاء من يستحق الهجاء، ولو أدّى ذلك إلى الصّلب. فلم يكن هجاؤه للخلفاء والحاكمين عندئذ إلا بدافع العقيدة وموالاتة أهل البيت (عليهم السلام). لأن الولاية لا تكون خالصة إلا بالبراءة ممن يصادها ويعاندها، كما تبرأ الله ورسوله من المشركين. وأما كلام أبي إسحاق القيرواني الذي ادعى أنه: «كثير التعصب لهم والغلو فيهم.» ليس إلا مجرد ادعاء لأنه لم يأت بنموذج ليثبت ادعاءه. فهذه الأقوال وما شابهها أطلقت على الكثيرين من موالي آل البيت (عليهم السلام) على مرّ العصور.

التهمة الثانية

ذكر أبو الفرج سبب خروجه عن الكوفة قائلاً: (الأصفهاني، ١٤٠٧ق: ١٣٦/٢٠) «عن أبي خالد الخزاعي: كان سبب خروج دُعبل بن عليّ من الكوفة أنه كان يتشطرّ ويصحب الشُّطار [كان هذا الاسم يطلق على أهل البطالة والفساد في أيام الدولة العباسية]، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة [مفردها الصيرفيّ: الذي يبدل النقود]، وكان يروح كل ليلة بكيسه إلى منزله، فلمّا طلع مقبلاً إليهما وثبا إليه فجرحاه، وأخذ ما في كُمه، فاذا هي ثلاث رمانات في خرقة، ولم يكن كيسه ليلتذمّعه، ومات الرجل مكانه، واستتر دُعبلُ وصاحبُه، وجدَّ أولياء الرجل في طلبهما، وجدَّ السلطان في ذلك، فطال على دُعبل الاستتار، فاضطر إلى أن هرب من الكوفة. قال أبو خالد: فما دخلها حتى كتبتُ إليه أعلمه أنه لم يبق من أولياء الرجل أحد!!»

وقد نسي أبو الفرج ما نقلها في الصفحات السابقة من كتابه فذكرها مرة أخرى بشكل آخر فيه تناقض عجيب في كيفية قتل الصيرفيّ حيث قال: «...عن أبي خالد الأسلمي كان يتشاطر بالكوفة وهرب منها بعد ما قتل صيرفياً: أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا ابن مهرويه قال حدثني ابن الأعرابي عن أبي خالد الأسلمي قال: كان دُعبل بن علي الخزاعي بالكوفة يتشطر وهو شاب، ... وكان يصلت علي الناس بالليل فقتل رجلاً صيرفياً، وظن أن كيسه معه، فوجد في كفه رماناً فهرب من الكوفة.» (الأصفهاني،

(١٤٥/٢٠: ١٤٠٧ق)

وجوابه هو: أننا نتوقع من القارئ المنصف ليقارن بين ما قاله أبوالفرج نقلا عن رجل باسم «أبي خالد الأسلمي» فهو تارة يقول: «وثبا إليه فجرحاه، وأخذ ما في كُثمه..... ومات الرجل مكانه»، ثم يقول: «فقتل رجلاً صيرفياً»، ولو فرضنا أن هذا الخبر صحيحاً فهل مات هذا الرجل طبيعياً كما يموت الإنسان في بيته أو في الطريق؟ أم قتله دعبل؟! فأى قول من الأقوال يعتبر صحيحاً؟ لأنه كما ذكر الأصبهاني: مرة هجم عليه الرجلان فمات الرجل مكانه إثر جرح طفيف!! ومرة أخرى ينسى ما قاله سابقاً فيقول: «قتل صيرفياً» بنفسه! فهل كان دعبل شريكاً في الموت أو قتله بنفسه للوصول الى كيسه؟!!

ومما لا شك فيه أن مصدر الروايات التي قيلت في دعبل كلها واحدة وهو «أبو خالد الأسلمي»، والظن أن طابع الوضع عليها واضح بقصد تلطيخ سمعته. وكما يظهر عن كلام "أبي خالد" إنه كان شديد التعصب على دعبل بل يمكننا نعتبه من ألد خصامه فمن الطبيعي أن يسعى وراء هذه الأكاذيب. فخير مثال على هذا هو ما ورد في الأمثال الفارسية حيث يقال: «إن الكذاب تقلُّ ذاكرته». والآن نلفت انتباهكم إلى ما قاله أبو الفرج عن حضور الشاعر لدى الإمام الرضا (عليه السلام) وبكاء الإمام إلى درجة الإغماء وإعطائه عشرة آلاف درهم وحلى كثير وثوباً من ثيابه، وإنه كيف امتنع عن بيع الثياب مقابل دفع مبالغ باهظة من قبل أهالي مدينة قم المقدسة. فهل يعقل للإنسان اللبيب أن يخطر بباله أن دعبل هجم على صيرفي طمعاً لسرقة أمواله؟!!

قال أبوالفرج الأصفهاني (١٤٠٧هـ: ١٦٢/٢٠)؛ وقد ذكرها أيضاً في (١٤٠٧هـ: ١٣٢/٢٠) فضلاً عن ذلك ورد في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (لاتا: ٢٦٢/١٧) «...قال [دعبل]: دخلت على علي بن موسى الرضا -عليهما السلام - فقال لي: أنشدني شيئاً مما أحدثت، فأنشدته:

ومنزلاً وحياً مُقْفَرُ العَرَصَاتِ

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تَلَاوَةٍ

حتى انتهيتُ إلى قولي:

أُكْفَأُ عَنِ الأوتارِ منقبضات

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم

قال: فبكى حتى أُغْمِيَ عليه، وأوماً إلى خادم كان على رأسه: أن أسكت، فسكَّتْ ساعةً، ثم قال لى: أعد، فأعدتُ حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً، فأصابه مثل الذى أصابه فى المرة الأولى، وأوماً الخادم إلى: أن اسكت، فسكَّتْ، فمكث ساعة أخرى ثم قال لى: أعد، فأعدت حتى انتهيت إلى آخرها، فقال لى: أحسنت، ثلاث مرات، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم مما ضُربَ باسمه، ولم تكن دُفِعَتْ إلى أحد بعد، وأمر لى من فى منزله بحملَى كثير أخرجهُ إلى الخادم، فقدمتُ العراق، فبعْتُ كلَّ درهم منها بعشرة دراهم، اشتراها منى الشيعة، فحصل لى مائة ألف درهم، فكان أول مال اعتقدته. يستوهب الرضا (عليه السلام) ثوباً لبسه ليُجعله فى أكفانه: قال ابن مهرويه وحدثنى حذيفة بن محمد: أن دُعبلًا قال له: إنه استوهب من الرضا عليه السلام ثوبا قد لبسه فى أكفانه فخلع جبة كانت عليه، فأعطاه إياها وبلغ أهل قم خبرها فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم، فلم يفعل، فخرجوا عليه فى طريقه، فأخذوها منه غضباً، وقالوا له: إن شئت أن تأخذ المال فافعل، وإلا فأنت أعلم. فقال لهم: إني والله لا أعطيكُم إياها طوعاً، ولا تنفعكم غضباً، وأشكوكم إلى الرضا عليه السلام. فصالحوه على أن أعطوه الثلاثين الألف الدرهم وفرد كُم من بطانتها فرضى بذلك.»

التهمة الثالثة

٣. قال أبو الفرج الأصفهاني: (١٤٠٧ق: ١٤٩/٢٠) «كان دُعبل يخرج فيغيب سنين، يدور الدنيا كلها، ويرجع وقد أفاد وأثرى. وكانت الشراة [الخوارج] والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه، ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرونه، وكان إذ لقيهم وضع طعامه وشرابه، ودعاهم إليه... وسقاهم وشرب معهم، وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه، وألفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يواصلونه ويصلونه.»

وجوابه هو: أن غيابه عن الناس وتجواله هنا وهناك فراراً من حكام الجور أو لكسب لقمة العيش فهو أمر طبيعى لأنه كان يلتقى لدى جولته بالخوارج واللصوص فهم كانوا يزورونه ولا يصيبونه أذى فهم يؤاكلونه ويشاربونه وهو أيضاً عندما كان ييسط مائدته يستدعيهم لتناول الطعام معه. هذا إن لم يكن حسناً فليس بعيب لأنه يدل على سجايه الأخلاقية بعبارة أخرى جذب إليه حتى اللصوص والخوارج رغم الاختلاف

بينهم في الأفكار والاعتقادات.

التهمة الرابعة

قال أبو الفرج الأصفهاني: (١٤٠٧ق: ١٣٧/٢٠) «... عن أبي خالد الخزاعي قائلاً قلت لدعلج: ويحك قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً [أصبح لهم عندك وتر؛ والوتر: الثأر]، فأنت دهرَكَ كَلَّهُ شريد طريد هارب خائف، فلو كفت عن هذا وصرفت هذا الشَّرَّ عن نفسك! فقال: ويحك؟ إني تأملت ما تقول، فوجدت أكثر الناس لا يُنتفعُ بهم إلا على الرَّهبة، ولا يُبالي بالشاعر وإن كان مُجيداً إذا لم يُخف شَرُّه، ولمن يتقِّيك على عَرَضِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَرْغُبُ إِلَيْكَ في تَشْرِيفِهِ. وَعُيُوبُ النَّاسِ أَكْثَرُ مِنْ مَحَاسِنِهِمْ، وليس كلُّ مَنْ شَرَّفَتْهُ شُرْفٌ، ولا كلُّ مَنْ وَصَفَتْهُ بِالْجُودِ والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقول، فاذا رآكَ قد أَوْجَعْتَ عَرَضَ غيره وفضحتَه اتَّقَاكَ على نَفْسِهِ وخافَ مِنْ مِثْلِ ما جَرَى على الآخر. وَيَحْك، يا أبا خالد إن الهجاء المُقذع آخِذٌ بِضِعِ الشَّاعِرِ مِنَ المِديحِ المُضْرِعِ. فَضَحِكْتُ مِنْ قَوْلِهِ، وقلت: هذا والله مقالٌ مَنْ لا يموتُ حَتْفَ أَنْفِهِ.»

وجوابه هو: أن كلام «أبي خالد الخزاعي» أشبه بحكاية مضحكة لأن الذي يسير وراء المنافع المادية لا يُلْقَى بنفسه إلى التهلكة عن طريق هجو الملوك والخلفاء والوزراء لكسب الثروة فهو لو كان مادياً لمدح المدوحين فلم يهج أحداً هجوا مقذعا. وإذا كان يقصد من وراء هجوه اكتساب المال لم يقل: «أنا أحمل خشيتي على كتفي منذ خمسين سنة، لست أجد أحداً يصليني عليها.» (الأصفهاني، ١٤٠٧ق: ١٣٣/٢٠) إنه كان يعلم أن هجو الظالمين والمستكبرين لأجل الدين يؤدي إلى استشهاده رغم ذلك لم يخف منهم مادام حياً. فضلاً عن ذلك إذا كان غرضه كسب المال لكان بمقدوره أن يضع لسانه في سوق الارتزاق كما فعل غيره، ولو فعل ذلك لفاق أقرانه وجمع أموالاً هائلة لا يمكن حصرها، ولكنه أبا إلا أن يضحي بالغالي والنفيس من أجل عقيدة كان يناصرها ضميره، وليس هناك مجال للتظاهر بالتشيع مادام التشيع محارباً من قبل الحكومة العباسية. هو كان يعرف جيداً أن من يتكلم عن مناقب الوصي يُقطع لسانه ويُزق ديوانه. فلذلك ألزم أئمة الشيعة النقية على شيعتهم حفظاً على دماءهم التي استحلبها

أولئك المجرمون الذين خلقوا للجريمة والإساءة إلى الناس، ولولا التقية لما بقي للشيعة اسم ولا رسم. لقد شدد الأئمة الطاهرون على شيعتهم بكتمان إيمانهم وإخفاء عقيدتهم حفظاً لدمائهم وإبقاءً على وجودهم.

التهمة الخامسة والجواب من دَعْبِلِ نفسه:

قال أبو الفرج الأصفهاني: (١٤٠٧ق: ١٩٦/٢٠) «يُتَّهَمُ دَعْبِلُ بَشْتَمِ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ [عليهما السلام] فيهرب وينكر التهمة: أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدثنا ابن مهرويه قال: حدثني أبي قال: قَدِمَ دَعْبِلُ الدِّينُورَ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ وَلَدِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَامِ كَلَامٌ وَعَرَبِدَةٌ عَلَى النَّبِيِّذِ، فَاسْتَعْدَى عَلَى عَمْرٍو بْنِ حَمِيدِ الْقَاضِي، وَقَالَ: شَتَمَ [دَعْبِلُ] بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْعَوْغَاءُ، فَهَرَبَ دَعْبِلُ، وَبَعَثَ الْقَاضِي إِلَى دَارِ دَعْبِلِ فَوَكَّلَ بِهَا وَخَتَمَ بِابِهِ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِرُقْعَةٍ فِيهَا: مَا رَأَيْتُ قَطُّ أَجْهَلَ مِنْكَ إِلَّا مَنْ وَلاَكَ، فَأَنَّهُ أَجْهَلُ، يَقْضَى فِي الْعَرَبِدَةِ عَلَى النَّبِيِّذِ، وَيَحْكَمُ عَلَى خَصْمِ غَايِبٍ، وَيَقْبَلُ عَقْلَكَ أُنَى رَافِضِي شَتَمِ صَفِيَّةِ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ. سَخَنَتِ عَيْنُكَ، أَفَمِنْ دِينِ الرَّافِضَةِ شَتَمِ صَفِيَّةٍ؟ قَالَ أَبِي: فَسَأَلْتِي الزُّبَيْرِي الْقَاضِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَحَدَّثْتَهُ، فَقَالَ: صَدَقَ وَاللَّهِ دَعْبِلُ فِي قَوْلِهِ، لَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَوَصَلْتَهُ وَبَرَرْتَهُ. هَذِهِ الْقَضِيَّةُ وَمَا شَابَهَتْهَا جَعَلْتَهُ يَفِرُّ مِنَ النَّاسِ حَيْثُ قَالَ شَهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ فِي كِتَابِهِ الْعَقْدُ الْفَرِيدُ (١٩٩٠م: ٢/٢٨٩): «وقيل لدَعْبِلِ الشاعر: مَا الْوَحْشَةُ عِنْدَكَ؟ قَالَ: النَّظْرُ إِلَى النَّاسِ!!»

التهمة السادسة

ذكر أبو بكر أحمد بن عليّ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣) في كتابه تاريخ بغداد: (١٤١٧ق: ٢٤٥/٨) «أَبَانَا أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدِ الْجَازِرِيِّ حَدَّثَنَا الْمُعَافِيُّ بْنُ زَكْرِيَّا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الصُّوْلِيُّ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى بْنِ حَمَادٍ قَالَ سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِ وَقَدْ ذَكَرَ دَعْبِلًا فَكَفَّرَهُ وَلَعَنَهُ وَقَالَ كَانَ قَدْ أَعْرَى بِالطَّعْنِ عَلِيَّ أُنَى تَمَامٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْهُ دِينًا وَشِعْرًا...»

وجوابه هو: عندما ينظر المنصف إلى تكفير عليّ بن الجهم ولعنه لدَعْبِلِ يخطر بباله مظلومية هذا الشاعر الملتزم فإنه بمجرد أن طعن عليّ أُنَى تَمَامٍ أصبح كافرًا وملحدًا حيث

يستحق التكفير واللعن مع أننا نجد الكثيرين من الشعراء طعنوا الآخرين فلا يوصف أحدهم بهذه الصفات؛ فضلاً عن ذلك لم يكن أبو تمام معصوماً عن الذنوب كي لا يقدر أحد أن ينقده.

التهمة السابعة

إساءة دعبل إلى من أحسن إليه. قال عنه أبو الفرج الأصفهاني: (١٤٠٧ق: ١٣١/٢٠) «لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة، أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبيرٌ أحد.» وقال أيضاً: (الأصفهاني، ١٤٠٧ق: ١٩٥/٢٠) «كتب [المأمون] إلى أبي أن يكاتبه [دعبل] بالأمان، ويحمل إليه مالاً. وإن شاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شاء فليفعل. فكتب إليه أبي بذلك، وكان واثقاً به، فصار إليه، فحملة وخلع عليه، وأجازه وأعطاه المال، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل. فلما دخل وسلّم عليه تبسم في وجهه، ثم قال أنشدني:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

فجزع، فقال له: لك الأمان لا تخف، وقد رويتها ولكني أحب سماعها من فيك، فأنشده إياها إلى آخرها والمأمون يبكي حتى أخضل لحيته بدمعه، فوالله ما شعرنا به إلا وقد شاعت له أبيات يهجو بها المأمون بعد إحسانه إليه وأنسه به...»

وجوابه هو: أنه لم يكن قليل الوفاء، ولم يضلّ المال كما أضلّ غيره من قبل، وحين هجا أولئك الذين أكرموه وأحسنوا إليه كالرشيد والمأمون مثلاً، فلأنه كان يفهم جيداً أن ذلك ليس إحساناً قبل أن يكون وسيلة لشراء الضمائر والتسلط على السنة الشعراء. فهجاؤه لمناوئي آل البيت (عليهم السلام) لم يكن بدافع شخصي أو مادي قط، وإنما كان بدافع العقيدة الذي يملى عليه ذلك، بغضّ النظر عن سوء النتائج أو حسننها، وقد أصرّ على ما هو عليه دون أن يتردّد أو يقلّ من عزمه حدّ. إنه كان يعرف جيداً أن المأمون يتظاهر بالتشيع فخير دليل على ذلك هو استشهاد الإمام علي بن موسى الرضا (عليهما السلام) بأمر منه فبيدهي أن لا يأبه دعبل بعطاياه ولا يهيمه إحسانه. ولذلك نجد في هجاءه للمأمون هدنة ولعل من أحد أسباب تلك الهدنة موضوع ولاية

العهد التي قبلها الإمام الرضا (عليه السلام)، وسبب آخر من أسباب تلك الهدنة ما تظاهر به المامون من حب آل البيت (عليهم السلام) والعطف على أشياعهم ومحبيهم. فبدا واضحاً لذوى البصائر النافذة أن ما فعله المامون لم يكن إلا سياسة مرحلية لدعم جبهته في صراعه المحموم على الحكم سياسياً وعسكرياً مع أخيه الأمين. لأن المنافقين من الشعراء كانوا يحرّضون المأمونَ على دُعبل، ولكن المأمون كان يفهم جيداً ما يجب أن يتخذه لتثبيت مركزه وحاكميته، فكيف يقتل شاعراً معروفاً بولائه لأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعلى مرأى من الناس، لذا أعطى لدُعبل الأمان رغم أنه هجا المأمون بقوله: (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢/٢٦٧؛ ابن عساكر، لاتا: ١٧/٢٦٣؛ الأبشيهي، ١٢٧٢ق: ٣/٢)

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفَهُمْ قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَّفَتَكَ بِمَقْعَدِ
شَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طَوْلِ خَمُولِهِ وَاسْتَنْقَذوكَ مِنَ الْحُضِيِّضِ الْأَوْهَدِ

أشار دُعبل في هذه الأبيات إلى قضية طاهر بن الحسين الخُراعى وحصاره ببغداد وقتله الأمين محمد بن الرشيد وبذلك ولى المأمون الخلافة والقصة مشهورة ودُعبل خُراعى فهو منهم وكان المأمون إذا أنشد هذه الأبيات يقول: (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢/٢٦٧) «قَبَّحَ اللَّهُ دُعْبَلًا فَمَا أَوْقَحَهُ كَيْفَ يَقُولُ عَنِي هَذَا وَقَدْ وُلِدْتُ فِي حَجَرِ الْخِلاَفَةِ وَرَضَعْتُ ثَدْيَهَا وَرَبِيْتُ فِي مَهْدِهَا.» ولكن لما مات المأمون خلفه أخوه أبو إسحاق محمد المعتصم سنة ٢١٨ق، فطارد الطالبين ونكّل بهم وكان دُعبل يرى في المعتصم خصماً عنيداً وعدواً لا يمكن تركه، فأكثر به الانتقاد اللاذع والهجاء. وكان يطلبه دائماً ليفتك به ويتخلص من لسانه فوضع عليه الجواسيس وعندما بلغ دُعبل أن المعتصم يريد قتله هرب. فهو لا يرى شرعية الخلافة في المامون أو المعتصم، بل كان يحصرها في أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). فلذلك نلاحظ أنه يتخذ أشعاره سلاحاً في عقاب الحكّام العباسيين لإظهار مساوئهم ومعايبهم وحقائقهم التي يخفونها وراء أقنعتهم كما قال في قبر الإمام الرضا (عليه السلام) وإلى جواره قبر هارون الرشيد الذي انحى أثره واندرس. (الأصفهاني، ١٤٠٧ق: ٢٠/١٩٤؛ ابن عساكر، لاتا: ٥/٢٣٣؛ المرزباني، ١٤١٣ق: ٩٤)

أربع بطوسٍ علي القبر الزكيّ إذا ما كنت تُربع من دينٍ علي وطّر
قبران في طوس: خير الناس كلهم وقبر شرهم. هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكيّ ولا علي الزكيّ بقرب الرجس من ضرر

وقال في خلفاء بني العباس مصوراً ما هم عليه من مطاردة لأهل البيت (عليهم

السلام) وتعذيب ونهب وتقتيل. (نفس المصادر)

قتل وأسرّ وتحريقٌ ومنهبةٌ فعل الغزاة بأرض الروم والحزر
أري أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر

فهو يعذر بني أمية في أفعالهم حيال بني هاشم لأنهم يبغضونهم ويحالفونهم في الدين والسياسة، ولكنه لا يرى لبني العباس من عذر فقد ناصرهم العلويون في قيام دولتهم ونجاح ثورتهم، وكانوا يحقدون على بني أمية لتقتيلهم آل البيت (عليهم السلام) وما قاموا إلا لأخذ الثأر الذي رفعوه شعاراً ولكنهم فاقوا ما فعله الأمويون.

قيل للوزير محمد بن عبد الملك الزيات: لم لاتجيب دعبلًا عن قصيدته التي هجاك فيها؟! «قال: إن دعبلًا قد نحت خشبته وجعلها علي عنقه يدور بها يطلب من يصلبه بها منذ ثلاثين سنة وهو لا يبالي ما قال هؤلاء وما فعل له.» (ابن المعتز، ٢٠٠٩م: ٢٦٥) ولا شك أن دعبل كان يهجو العباسيين ويفشى سلوكهم السيئ تجاه الناس. فهو يصف "خلفاء!!" بني العباس بملوك بني العباس. حيث ذكر أبو الفرج الأصفهاني: (١٤٠٧ق: ١٥٧/٢٠؛ الخطيب البغدادي، ١٤١٧ق: ٣٧٩/٨) «كان المعتصم [محمد بن هارون ثامن الملوك العباسيين الحكم سنة ٢١٨ق] يبغض دعبلًا لطول لسانه، وبلغ دعبلًا أنه يريد اغتياله وقتله، فهرب إلى الجبل، وقال يهجو: (الأصفهاني، ١٤٠٧ق: ١٥٨/٢٠)

وقامَ إمامٌ لم يكن ذا هدايةٍ فليس له دينٌ وليس له لبٌ
ملوك بني العباس في الكُتبِ سبعةٌ ولم تأتينا عن ثامنٍ لهم كُتبٌ
كذلك أهل الكهف في الكهفِ سبعةٌ خيارٌ إذا عدوا وثامنهم كلبٌ»
وإني لأعلى كليهم عنك رفعة لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

فكان دعبل نفسه في صميم المعارضين لخلافته وحكمه، ولا سيما مع تصاعد كره

المعتصم لشبيعة آل البيت (عليهم السلام) ومحبيهم، ولم يكن دَعْبِلِ ليسكت عن كل هذا الحيف الذي ألحقه المعتصم بالمسلمين الشيعة. مرة أخرى يهجو المعتصم والوائق [الوائق بالله هارون بن محمد المعتصم هو تاسع الملوك العباسيين، حكم لخمس سنين، تمتد من ٢٢٧ حتى ٢٣٢ق] حين علم نعي المعتصم: (الأصفهاني، ١٤٠٧ق: ١٦٠/٢٠) «...كنت مع دَعْبِلِ بالصيمرة وقد جاء نعي المعتصم وقيام الواثق، فقال لي دَعْبِلِ: أمعك شيء تكتب فيه؟ فقلت: نعم، وأخرجت قرطاسا، فأملى على بدئها:

الحمد لله لا صبرٌ ولا جلدٌ ولا عزاء إذا أهل البلا رَقَدُوا
خليفة مات لم يجزَنْ لَهُ أَحَدٌ وآخِرُ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحَدٌ
فمرَّ هذا ومرَّ الشؤمُ يتبعُهُ وقام هذا فقام الظلمُ والنكدُ

استشهاده:

كما مرَّ سابقاً كان العباسيون أشدَّ كرهاً للعلويين من الأمويين وأعظم بغضاً، فأمعنوا فيهم قتلاً وحرقةً، واضطهاداً وتعذيباً. فمن ذكر علياً سُجِنَ أو نُهبَ ماله أو هُدمت داره، وكان البلاء يشتدُّ على العلويين يوماً بعد يوم. فمن دفن الناس أحياء إلى الصلب إلى الحرق إلى الحبس ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوس، حتَّى يقضى نحبه جوعاً وعطشاً. (انظر: الكيلاني، لاتا: ٢٢) فُقُتِلَ أنصار علي (عليه السلام) في كلِّ قطر وكلِّ مصر وعُذِّبوا تعذيباً مرّاً، قطعت منهم الأيدي والأرجل. فلم يستثن شاعرنا عن مؤامراتهم فهو بعد ما هجا مالك بن طوق هرب إلى البصرة فبعث مالك بن طوق رجلاً حصيفاً مقداماً، وأعطاه سماً وأمره أن يغتاله كيف يشاء، وأعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم، فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السوس، فاغتاله بعد صلاة العشاء، فضرب ظَهْرَ قدمه بعكازٍ مسموم فمات من غد، ودفن بتلك القرية. وقيل بل حمل إلى السوس، فدفن فيها. (ابن عساکر، لاتا: ٢٧٧/١٧؛ الأصفهاني، ١٤٠٧ق: ٢٠٠/٢٠) وأما ترديد ابن عساکر في تاريخه (لاتا: ٢٤٢/٥) بعد ذكر وفاة دَعْبِلِ سنة ٢٤٦ق وقوله: [قيل: إنه هجا المعتصم فقتله. وقيل: إنه هجا مالك فأرسل إليه من سمه بالسوس] ترديد بلا تأمل، إذ المعتصم توفي سنة ٢٢٧ق قبل شهادة دَعْبِلِ بتسع عشرة سنة. كما أن ما ذكره الحموي في معجم البلدان (١٣٥٧ق: ٤١٨/٤) من [أن دَعْبِلًا لما هجا المعتصم

أهدر دمه فهرب إلى طوس واستجار بقبر الرشيد فلم يجره المعتصم وقتله صبراً في سنة ٢٢٠ق] خلاف ما اتفق عليه المؤرخون وعلماء الرجال من شهادته سنة ٢٤٦ق. (ابن خلكان، ١٩٦٨م: ٢/٢٧٠؛ الخطيب البغدادي، ١٤١٧ق: ٨/٣٨١)

النتيجة

١. في تلك النماذج التي عرضناها ما يمكن اعتباره شاهداً على تعصب المؤرخين. ومع الرغم محاولة بعض مؤرخي الأدب العربي وبتحريض من (السلطان) لطمس معالم شخصية هذا الشاعر الشهيد وآثاره وشعره، فلقد حفظ لنا المنصفون من المؤرخين والباحثين شذرات من كلمات نظمها شعراء، فبقيت خالدة حتى يومنا هذا، تشير إلى الحق والخير والفضيلة.

٢. تبين لنا من سيرة شاعرنا أنه مطبوع علي الخير، يغلب علي أشعاره الهجاء لحكام الجور؛ واشتهر بالهجاء في عصر كان يعتبر فيه الهجاء جريمة يعاقب عليها فاعلمها. فهذا النزر اليسير من شعره الذي وصل إلينا عن طريق هذه المصادر فيه دلالة على أن روح التقوى والصدق ظلت تسيطر على تصرفاته.

٣. كان دعبل شيعياً، وكان تشبعه معتدلاً معقولاً، لا غلو فيه ولا إسراف. فامتاز عن شعراء عصره بأنه كان جريئاً غاية الجراءة، وكان إذا ضرب لا يتهاون في ذلك، وإذا هجا فلا يهمله أن يكون هجاؤه في خليفة أو غير خليفة وما ذلك إلا لصدق نيته وشجاعته وإيمانه وصلابة عزيمته.

٤. في القليل من الشواهد التي عرضنا لها من أخباره وأشعاره ما يكفي للتدليل علي حبه للإسلام وأهله. لأنه كان يتناول في شعره حق آل البيت عليهم السلام الذين كان يؤمن بحقهم الصريح، فهجاؤه للحكام العباسيين يُثبت بكل صدق ووضوح تلك الطاقة وتلك القوة الكامنة في نفس هذا الشاعر الثائر.

٥. من خلال العرض السابق لسيرة شاعرنا تبين أنه لم يعدل من مواقفه ولم يستطع أن يتقيد بمحدود المستكبرين أو أن يمتثل لأوامرهم ونواهيهم. فهو كما يبدو قد طبع علي الخير وكلف به وانصرف إليه وقد وجد في الشعر متنفساً له يعبر فيه عن مكوناته القلبية، وسخطه علي قيم الظالمين.

المصادر والمراجع

- ابن الأبار الأندلسى. (١٩٦٣م). الحلة السیراء. تحقيق حسين مؤنس. الطبعة الأولى. القاهرة: لانا.
- ابن المعتز. (٢٠٠٩م). طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. مصر: دار المعارف.
- ابن خلدون. (١٩٦١م). مقدمة ابن خلدون. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب اللبنانى.
- ابن خلکان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. (١٩٦٨م). وفيات الأعيان وأنباء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة.
- ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد. (١٩٩٠م). العقد الفريد. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- ابن عساکر، على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى. (لاتا). تاريخ دمشق. ثمانين مجلدًا. بيروت: دار الفكر.
- ابن منظور المصرى. (١٩٦٥-١٩٦٦م). مختار الأغاني. القاهرة: تحقيق الأبيارى.
- الأبشهى، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد. (١٢٦٨-١٢٧٢ق). المستطرف فى كل فن مستظرف. القاهرة: مطبعة بولاق.
- الأصفهانى، أبو الفرج. (١٤٠٧ق. ١٩٨٦م). الأغاني. الشرح والهوامش د. عبدالله على مهنا. بيروت: دار الفكر.
- الخطيب البغدادى، أبى بكر أحمد بن على. (١٤١٧ق). تاريخ بغداد أو مدينة السلام. الطبعة الأولى. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دارالكتب العلمية.
- الزركلى الدمشقى، خير الدين بن محمود بن محمد بن على بن فارس. (١٩٩٢م). الأعلام. الطبعة العاشرة. بيروت: دار العلم للملايين.
- القيروانى أبو إسحاق ابراهيم بن على المصرى. (لاتا). زهر الآداب وثمر الألباب. تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد. مصر: المطبعة الرحمانية.
- الكيلى، محمد السید. (لاتا). أثر التشيع فى الأدب العربى. الطبعة الأولى. القاهرة: لجنة النشر للجامعيين.
- المرزبانى. (١٤١٣ق). أخبار شعراء الشيعة. الطبعة الثانية. بيروت: شركة الكتبى.
- ياقوت الحموى. (١٣٥٥-١٣٥٧ق). معجم الأدباء. مصر: مطبعة المأمون.

المجلات

- محمد خير شيخ موسى. (١٩٨٩م). مجلة التراث العربى. «مواطن الخلل والاضطراب فى كتاب الأغاني». العدد ٣٤، كانون الثانى.